

## الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

حسن محمد ربيعة

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فيلادلفيا،

صويلح، الأردن

(قدم للنشر في ٤/٦/١٤١٦هـ؛ وقبل للنشر في ٢٩/٢/١٤١٧هـ)

**ملخص البحث.** اتّسم شعر الشعراء الصعاليك في الجاهلية بسمة حربية هي «الغارة» على القبائل العربية في جزيرة العرب لأسباب اجتماعية كال فقر، والأخذ بالثأر، وسياسية لعدم توافر دولة تحتكم إليها القبائل في نزاعاتها، ولأسباب أخرى أدرجت في البحث. وأعتقد أن الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية لم تدرس دراسة عسكرية أدبية من قبل، وقد قسم البحث إلى:

١ - مصطلح الغارة ودوافعها.

٢ - التخطيط للغارة.

٣ - تنفيذ الغارة.

### مقدمة

منذ فقد كتاب «اللبصوص» لأبي سعيد السكري الذي عني بدراسة مستقلة عن الصعاليك تفرقت أشعارهم وأخبارهم شذر مذر في بطون مصادر الأدب ومعاجم اللغة، ومصادر التراجم، ومعاجم البلدان، ومصادر الشعر وغيرها، بحيث نال كل مصدر حاجته من شواهد رأها لازية له. ولعل من أبرز مصادر الأدب التي عنت بأشعارهم هي: الحيوان للجاحظ، والأُمالي لأبي علي القالي، والكامل للمبرد، والعقد لابن عبدربه، ومجمع الأمثال للميداني. كما أن من أبرز معاجم اللغة التي احتجت بلغتهم شرحاً للفظ وتبياناً للمعنى في شتى التوظيفات هي: الصحاح للجوهري،

ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، وتاج العروس للزبيدي. والتتمعت بعض أشعارهم وأخبارهم في خزانة الأدب للبغدادي وهو يحتج بشواهد من شعرهم فيها؛ وفي شرحه لشواهد مغني اللبيب لابن هشام. ولعل أبرز أخبارهم وأشعارهم أن تلتمعه في كل من: كتاب الأغاني لأبي فرج الأصبهاني، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ونزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار لابن درهم. هذا، وضمت معاجم البلدان شيئاً من أشعارهم في تحديد مواقع بعض البلدان التي ذكروها في أشعارهم نحو: صفة جزيرة العرب والإكليل للحسن الهمداني، ومعجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت الحموي وغيرهم. وتوزعت أشعارهم في مصادر الشعر نحو: المفضليات والأصمعيات والحماسات المختلفة كحماسة أبي تمام الكبرى، وكتاب الوحشيات الصغرى، وحماسة البحتري، وحماسة ابن الشجري، والخالدين وغيرهم. وجمعت الطرائف الأدبية شبه ديوان لتأبط شراً، كما أن من أشعارهم ما ضمه ديوان كديوان عروة بن الورد، ومنهم من ذكر فروسياتهم، كصاحب لباب الآداب، كما أن أخبارهم وأشعارهم في مصادر شتى يضيق البحث عن ذكرها، فأدرجت بعضها كمراجع في ثبت البحث.

ومخلص القول: إن تفرق أشعارهم وأخبارهم كما رأيت في الثبت - وهو غيظ من فيض - ربما رغب كثيراً من البعثة المحدثين عن درس شعرهم، بعد أن سبروا أحواله في شتات المصادر المتعددة، وعلى الرغم من متاعب البحث في شعرهم، فقد جازف يوسف خليف وكان أول من خاض - فيما أعلمه - لجة شعرهم وحياتهم في كتابه الموسوم بالشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ودرس ظاهرة الصعلكة وفسرها اجتماعياً وجغرافياً واقتصادياً، ودرس بعده عبد الحليم حفني الصعلكة لغة واصطلاحاً ونشأتها متأثراً بدراسات الأول، وامتد بحثه فاشتمل الصعاليك في الإسلام، كما تغلغل في نفسية الصعلوك من خلال شعره وسيرة حياته في جاهليته وإسلامه. وأبرز خصائص الشعر الاجتماعي في كل من العصرين في كتابه الموسم شعر الصعاليك. منهجه وخصائصه.

والحق، فقد ألح الباحثان إلى شعر الحرب عندهم كشعر المراقب وحديث الفرار، ولكنه على تقديري لدراستيهما إلماح غير مستوفٍ، مما دفعني إلى أن أتناول

ظاهرة حربية وسمتها بـ (الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية)؛ ذلك لأن السمة الغالبة على حروبهم كانت تتخذ من الغارة فن قتال؛ فيشنها ثلة من الشعراء الصعاليك، وقد يقودون غيرهم من صعاليك غير شعراء، فيروعون المجتمع الجاهلي أيما ترويع، بل يفزعونه أيما إفزع، يدفعهم إليه فقر معوز، أو للأخذ بشأركان يغلي بأكبادهم، أو للانتقام من قوم أذلّوهم بالسلب والغلب، فهبوا سراحين؛ يشاغبون خصومهم ليلاً ونهاراً، ويتلبسون الليل في غالب غاراتهم؛ رداء خفياً، فينجزون غزواتهم فيه، ويعودون إلى قواعدهم سراعا لا تدركهم الخيل، والليل أليل. كانوا دلاء أنفسهم في متاهات صحارى يضل بها المنجمون، ويستخبرون أعداءهم وأهدافهم بالحيلة والخديعة، ووسائل شتى، ورموزهم لغة يتفاهمون بها وينسقون معانيها فيما بينهم، يتخفّفون من اللباس بسبب فقرهم وطلباً للنجاة في هروبهم، ويطمرون فضلات ما يأكلون حفاظاً على الأمن، وسرية الترصّد؛ إنهم يرصدون ويرصدون، فتية يوفضون إلى قواعدهم سراعا على جراحاتهم، ويعيدون الأسلاب إذا كانت سبباً لمنجاتهم، كأن شعارهم (اضرب واهرب، واسلب وانهب) وإياك والمغامرة الفاشلة، ولذا فإنهم يعترفون بهزائمهم أمام خصومهم، وحيناً بها يفتخرون؛ يأسرون ليستفدوا، ويستفدون إذا أسروا، ويسبون النساء ليعرسوا بهن، صُبْرٌ على الجوع والعطش، بَسْلٌ على مخاوف الصحارى في حنادس الليل، حين تتناوح في متاهاتها الرياح العاتيات، وتتناحق الغربان في أفنائها، وتتمثل لهم الغيلان ليلاً بأشباحها، وتتعاوى الذؤبان في شعابها، وتلسعهم صحارى بسياطها اللاذعات صيفاً ونهاراً، وشتاءً وليلاً، تلسعهم دوغماً شفقة، وهم يتضورون في أسمالهم من ألبسة بالية؛ لا تقيهم حرها ولا قرها، وهم مع ذلك حرص على تنفيذ غاراتهم لا يكاد يغمض لهم طرف؛ حذراً من عدو يتربص بهم الدوائر، بواسل لا ترتعد لهم فريضة في حالتي كرههم وفقرهم، وأبرزهم الشنفرى، وتأبط شرّاً، والسليك بن السلكة، وعروة بن الورد، وعمرو بن براق، وصخر الغي الهذلي، وحاجز بن عوف الأزدي، ومالك الهمداني.

هذا؛ وقد درست الغارة عندهم من ثلاثة محاور رئيسة هي:

١ - مصطلح الغارة ودوافعها

٢ - التخطيط للغارة

٣ - تنفيذ الغارة

### أولاً : مصطلح الغارة ودوافعها

يكاد مصطلح الغارة لغة ينحصر في معاجمنا القديمة والحديثة على أنه جماعة من الخيل إذا أغارت على العدو والهجوم عليه والإيقاع به. (١)

ولعل توقف المعاجم المذكورة عند هذا المعنى لغة دون أن تتوسع إلى الغارة الراجلة أن يؤكد ضرورة متابعة مراحل تطور المصطلح عبر تاريخ الأمة العربية. ومصطلح الغارة raid في القاموس الإنجليزي فيه تمدد لمعناه الاصطلاحي، إذ إنه عملية عسكرية سريعة على ظهور الخيل يمتطيها فرسان بغزوات على الطرق، ويمتد معناها ليشمل دوافعهم طلباً للثروة، وإلى معنى كتائب غزوكمغاوير. (٢)

ولعل مصطلح الغارة أن يكون بعض ما عرفه المعجم الإنجليزي صحيحاً، مع أنني أرى نقصاً فيه فهو عنده «هجوم قوة مفاجأة أو هجوم على شيء للقبض عليه أو لقمعه أو لتدميره». (٣)

ويمكن أن نخلص إلى تعريف الغارة بأنها: نوع من الدوريات ذات قوة مسلحة فرساناً أو رجلة، تعتمد على السرعة والمفاجأة في شن عملياتها على العدو، وذلك بعد تخطيط دقيق واستخبار كاف عن قوات العدو وسلاحه وتوزيع قواته، وطبيعة أرضه ومكانه؛ كي تتمكن من تحقيق أهدافها التي يمكن أن تكون التدمير والقتل أو يسند إليها واجب السلب والنهب، أو خطف أفراد من العدو، أو سبيهم، أو واجبات أخرى، ومن مبادئها

(١) انظر مادة (غور) عند: إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩م)، ٢: ٧٧٣-٧٧٥؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب المحيط، إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي (بيروت: دار لسان العربي، ١٩٨٤م)، ٢: ١٠٢٧ بمعنى خيل مغيرة؛ مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تصحيح على نسخة محمد الشنقيطي (بيروت: عالم الكتب، د.ت.)، ٢: ١٠٥٠، ولعله ينقل معنى أغار وإغارة من لسان العرب؛ أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشروح الكبير، صححه على النسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية، مصطفى السقا، ط ١ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت.)، ٢: ١١٠؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، إخراج إبراهيم مصطفى وزملائه (استانبول: دار الدعوة، ١٩٨٩م)، ٦٦٥-٦٦٦.

(٢) Short Oxford Dictionary, "Art Raid," 1740.

(٣) Ibid.

الانسحاب، بعد إنجاز المهمة، إلى قواعد متفق عليها، دونما اهتمام باحتلال أرض للعدو، أو الاحتفاظ بها، وخاصة عند التيقن بأن خطر العدو، قد يداهمها فيها. ولعل أبرز مبادئ قتالها اضرب واهرب، على نحو من مفهوم حرب العصابات؛ معتمدة على لياقة بدنية عالية، في تنفيذ واجباتها. فما مفهوم الغارات عند الشعراء الصعاليك، في ضوء درس شعرهم وأخبارهم؟ وما دوافعهم؟

لعل من أبرز دوافع غارات الصعاليك دافعان: جسدياً ونفسياً، وهما دافعان رئيسيان يؤيدنا بهما معاجم اللغة وسير حياتهم وأشعارهم، ويمكن أن نضيف دوافع أخرى استنتجها بعد دراسات جادة باحثان هما: يوسف خليل، وعبدالحليم حفني. عزها الأول إلى دوافع اجتماعية وجغرافية واقتصادية، وعزها الثاني إلى دوافع سياسية؛ ممثلة بعدم وجود دولة جامعة، وظهور زعامات غير متزنة، وإلى عوامل اجتماعية ممثلة بعدم التوازن بين الفقر والغنى، وإلى عوامل جغرافية تمثلها طبيعة الأرض والحياة، متأثراً برأي يوسف خليل، وإلى عوامل أخرى كالفردية والوراثة، والاستعداد والشذوذ على نحو اجتماعي نفسي.<sup>(٤)</sup>

وأما أبرز دوافع الصعلكة فـجسدي ونفسي، وهما دافعان قويان أثرا في صعلكتهم، وتبنيهم حرفة التصعلك والفتك والشرطة، وهما اللذان أتكىء عليهما من خلال تحديد معاجم اللغة لمعنى الصعلكة، ذلك لأن صاحب الصحاح يحدد معنى الصعلوك بالفقير الذي لا مال له، ويفرض أن يعيش عالة على غيره بأن يجعل أحداً من الناس عماداً له في حين رضي بعضهم لأنفسهم عيش الذل.<sup>(٥)</sup>

ومن أسمائهم عند الجوهري «الذؤبان» لأنهم يتلصصون، وفي لسان العرب فقراء ومثله في القاموس المحيط لا مال لهم، ومن أسمائهم الفتكة لما امتازوا به من شجاعة وغيلة التي تعني انتهاز الغفلة التي من لوازمهم، مستغلين العزيمة، ومن

(٤) يوسف خليل، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٦٣-٨٨؛ عبدالحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ط ٢ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ٣٩-٨٥.

(٥) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط ١ (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ)، ٧: ١٥٣.

أسمائهم الخلعاء أيضاً لأن قبائلهم تخلعهم لكثرة جرائرهم. (٦)  
ونخلص إلى القول: بأن سلوك الصعلوك سلوك عدواني ودائم مهما اختلفت  
صوره وأساليبه، وهم بالمعنى العرفي ذؤبان ولصوص وفقراء احترقوا فنوناً من القتال في  
التلصص والسلب والفتك وهم أباة لا يقبلون الضيم، أو أن يتطول أحد عليهم بفضله،  
وساعدهم على تصعلكهم عوامل أبرزها اثنان هما: الدافع الجسدي والدافع النفسي.

### الدافع الجسدي

الدافع الجسدي إلى التصعلك، فيعزى لحاجتهم إلى الطعام، وتأني نفوسهم  
الذل لأحد، أو الاستجداء من أحد، وقد تمتعوا بلياقة بدنية عالية، فهم فقراء يرون  
الفقير من شرار الناس، ولذا لا بد من التماس جوانب الغنى أينما كانت، فهاهم فقراء  
وذوو عيال؛ فأصغى إلى عروة بن الورد يخاطب زوجته: (٧)

ذريني للغنى أسعى فسأني رأيت الناس شرهم الفقير  
وقوله:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا  
وقوله:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح  
فالجوع أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان فيما يقال، (٨) والسليك بن

(٦) انظر مادتي: «صعلك» و«خلع» عند: ابن منظور؛ لسان العرب، ٢: ٣٤٣، مادة «صعلك»،  
بمعنى الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهري، ولا اعتماد، ١: ٨٨١، مادة «خلع»، منه الخليع  
الشاطر الخبيث الذي خلعه عشيرته وتبرأت منه لجرائره. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ٣:  
١٨-١٩، مادة «خلع»، منها الخليع والمخلوع وهو الذي لا يؤخذ بجريته بعد خلعه، و٣:  
٣١٠، «صعلك»، ومنها الصعلوك بمعنى الفقير؛ أسامة بن منقذ (الأمير)، لباب الألباب، تحقيق  
أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار الكتب السلفية، ١٩٨٧م)، ١٧١؛ كان تأبط شرأ صعلوكا فاتكأ.  
(٧) عروة بن الورد والسموأل، ديوان عروة والسموأل (بيروت: دار صادر، ١٩٦٤م)، ٤٥، ٤٤،  
٢٢ بالترتيب؛ خليف، الشعراء الصعلاليك، ٢٩.

(٨) Ernest R. Groves, *Personality and Social Adjustment* (New York: The Modern Library, 1931), 27.

السلكة يعاني من آثار الجوع أحياناً فيغمى عليه ويشرف على الهلاك: (٩)  
وما نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف  
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضربي إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف  
ومنهم من يبرز صراعه مع الجوع، واستعداده لالتهام التراب على أن يرى لأحد  
فضلاً عليه كالشنفري: (١٠)

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل  
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول  
إنهم كما ترى أباة يستسهلون الموت للوصول إلى تحقيق الغنى، فعروة بن الورد  
يرى الموت خيراً من حياة فقيرة يعيشها المرء، ولا يعطف عليه أحد من أقربائه؛ إذا  
احتاج إليه وضعفت حالته: (١١)

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح عليه، ولم تعطف عليه أقاربه  
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً، ومن مولى تدب عقاربه  
وهم أصحاب عزيمة عالية، ونفس أبية، يمتدحون الصعلوك الجاد في عمله بمن  
يطل على أعدائه كل حين، ليغتتم فيهم الفرصة؛ في حين يسبون صعلوكاً متسكعاً  
حول موائد غيره، يرتجى عنده فضلات من طعام أو قطعة لحم، ويصبح يحث عن جنبه  
الحصى في كسل وعجز، ولا يفكر إلا في قوت بطنه: (١٢)

لحي الله صعلوكاً إذا جنّ ليله مصافي المشاش ألفا كل مجزر  
بعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق معشر  
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً بحث الحصى عن جنبه المتعفر  
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المستور  
مطل على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشمر

(٩) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابي ومحمود محمد فهم،  
بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د. ت.)،  
١٣٥: ١٨.

(١٠) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، كتاب ذيل الأمالي والنوادر (بيروت: منشورات دار الآفاق  
الحديثة، د. ت.)، ١: ٢٠٤.

(١١) عروة بن الورد، ديوانه، ١٩.

(١٢) عروة بن الورد، ديوانه، ٣٥-٣٨.

والصعلوك جسدياً هزيل الجسم، لكنه كريم النفس، شديد السطوة كالأسد الذي لا يبالى بالعواقب: (١٣)

يابس الجنين من غير بؤس      وندي الكفين شهم مدل  
غيث مزن غامر حيث يجدي      وإذا يسطو فليث أبـل  
وهو نحيف الجسم، ذو ذراع طويلة، تظهر عروق ذراعه، قليل اللحم، مشمر الثوب، قوي البنية، شأن الشنفرى الذي يصفه تأبط شرّاً: (١٤)  
عاري الضنايب ممتد نواشره      مدلاج أدهم واهي الماء غساق  
والصعاليك سراع كالشنفرى الذي يعادل وقع قدمه على الأرض مشي ذكر النعامة إلى أولاده: (١٥)

أرى قديميَّ وقعهما خفيف      كتتحليل الظليم حدارثاله  
ولا غرو أن يفوز الشنفرى في سباقه مع القطا الكدر إلى نبع الماء، وهي أسرع الطيور ويتباهى: (١٦)

وتشرب أساري القطا الكدر بعدما      سرت قرباً أحشاؤها تتصلصل  
هممت وهمت وابتدرنا وأسلدت      وشمرّ مني فارط متمهل  
فوليت عنها وهي تكبو لعقره      يباشره منها ذقون وحوصـل  
وتميز الشنفرى بسرعه «فقد ذرع خطوه ليلة مقتله فوجد أول نزوة نزاها إحدى

(١٣) «ديوان حماسة أبي تمام، شرح التبريزي، ط١ (بيروت: دار القلم، د. ت.)، ١: ٣٤٧، يرثي تأبط شرّاً.

(١٤) أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، شرح المفضليات، تحقيق علي محمد الجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ت.)، ٢٩-٥٢.

(١٥) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٣.

(١٦) انظر الشعر عند كل من يلي: عبدالرحمن بن درهم، نزمة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، د. ت.)، ٧٣١؛ القالي، كتاب ذيل الأمالي، ١: ٢٠٣-٢٠٦؛ الشنفرى، لامية العرب، لشاعر الأزد (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥م)، ٧٤ وما بعدها؛ بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، ط١ (بيروت: مؤسسة نوفل، ١٩٦٦م)، ٢١٢؛ جرجي زيدان، تاريخ الأدب العربية، راجعها وعلق عليها شوقي ضيف (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧م)، ١: ١٦١-١٦٣. وأقدم رواية للامية في ذيل الأمالي للقالي.



وعشرين ثم الثانية سبع عشرة خطوة، « وعليه فلا عجب من أن لا تدركه الخيل إذا عدا. » (١٧)

وقد ضرب المثل بعدوهم فقييل : « أعدى من الشنفرى » و « أعدى من السليك. » (١٨) ويعد السليك من عدائي العرب الذين كانوا لا يلحقون ولا تتعلق بهم الخيل، ومعه تأبط شرا، والشنفرى، وعمرو بن براق الذي له في عدوه ثلاثة أطلاق، الأولى كالريح الهابّة، والثانية كالفرس الجواد والثالثة يكبو ويتعثر. (١٩)

ويقال مثله عن سرعة حاجز الأسدي ممن كان يسبق الخيل. « فأصنح إليه وهو يعتز بسرعه في فراره على رجله؛ فيفدي رجله أمه وخالته لأنهما سبب نجاته: (٢١)

فدى لكما رجلي أُمي وخالتي وشد كما بين الربى والأثائب

نجوت نجا لا أطبك طبعه ويزو بشرّ نزو أزعر خاضب

كما يتباهى تأبط شراً بسرعه أيضاً، فيرسم لنا صورة مجاراته لظلال الطير وتفوقه عليه: (٢٢)

أجاري ظلال الطير لو فات واحد ولو صدقوا قالوا له هو أسرع

ولعل خير من ينسحب على وصف بنياتهم الجسدية ما يرسمه لنا أبو كبير الهذلي في أبياته لتركيبه تأبط شرا الجسدية، فهو قوي البنية صلب العود، خفيف

(١٧) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٨٥-١٨٦.

(١٨) أبو الفضل محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ٢: ٣٩٤-٣٩٦.

(١٩) انظر القصة عند: الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٠ وما بعدها؛ السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مصطفى حجازي ومراجعة عبدالستار أحمد فرج (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٣م)، مادة شفر و المثل «أعدى من الشنفرى»، ١٢: ٢٠٧؛ ابن منظور، لسان العرب، ٢: ١٨٩، مادة «سلك» حيث كان يسمى «سليك المقائب»؛ ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب، ط ١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، ٢١٣.

(٢٠) الأصفهاني، الأغاني، ٢: ٤٩.

(٢١) أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي البحتري، الحماسة، ط ٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م)، الباب الخامس والعشرون، ٤٩-٥٠.

(٢٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٨.

الجسم، سريع العدو، جريء القلب، شديد المراس والعزيمة، أعدته الطبيعة ليكون هكذا قويا ومنذ تكونه في رحم أمه. (٢٣) كانوا أقوياء البنية حتى أن منهم من يهزم خصمه حتى وإن علاه غيلة شأن السليك وخصمه. (٢٤)

### الدافع النفسي

وأما أبرز دوافعهم النفسية فتشكلت من عوامل شتى منها: شجاعتهم وإيمانهم بالكر والفر؛ فهذا أبو خراش الهذلي يقول مخاطباً امرأته: (٢٥)

فإن تزعمي أنني جبت فأنني أفرّ وأرمي مرة كل ذلك  
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

ومن دوافعهم النفسية صراعهم مع زوجاتهم لفقرهم واعتراض بعضهن على التصعلك كعروة بن الورد حيث ينازعه منزعه منزعان: نفسي داخلي؛ ونفسي خارجي من زوجته، يحسمهما بقرار التصعلك: (٢٦)

فللموت خير للفتى من حياته فقيرا ومن مولى تدب عقاريه  
وسائلة: أين الرحيل؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهب؟

وتخوفه زوجته من العدو لتثنيه عن التصعلك؛ ويرد عليها بأن الموت يحل بالمقيم كما يحل بالمسافر: (٢٧)

(٢٣) أبو تمام، ديوان حماسته، شرح التبريزي، ١: ٣٤٨. وانظر قصيدة أبي كبير الهذلي في وصف تأبط شرًا من عشرة أبيات يبين تركيبته الجسدية والنفسية عند شرح ديوان الحماسة: أبو علي أحمد ابن محمد بن حسن المرزوقي، نشره أحمد أمين، وعبد السلام هارون، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م)، ١: ٨٤-٩٢؛ عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك، ١١٣.

(٢٤) ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، ١: ٣٦٦-٣٦٧.

(٢٥) انظر: الخالديان، حماسة الخالدين «الأشباه والنظائر» في دار الكتب المصرية رقم ٢٦٢، تيمورية، شعر ورقة ٣٩٧.

(٢٦) عروة بن الورد، ديوانا عروة والسموأل، ١٩.

(٢٧) أبو تمام، ديوان حماسته، شرح التبريزي، ٢: ٣٣٨-٣٣٩.

أرى أم حسان الغداة تلومني      تخوفني الأعداء والنفس أخوف  
 لعل الذي خوفتنا من أماننا      يصادفه في أهله المتخوف  
 ومن دوافعهم النفسية طمعهم بالغنى، أو بالاكتماء الذاتي الذي يسعى إليه عروة  
 ابن الورد فيحاور زوجته: (٢٨)

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر      ونامي، وإن لم تشتهي النوم فاسهري  
 ذريني أطوف في البلاد لعلني      أخليك، أو أغنيك عن سوء محضري  
 وبعض نسوة عروة تشجعه على التصعلك، شأن تماضر التي دعته إلى المخاطرة  
 كي يصيب غنيمة، فالقعود مع العيال عمل قبيح، وذلك أن المال مهابة، والفقر  
 مذلة: (٢٩)

قالت تماضر إذ رأت مالي خوى      وجفا الأقارب، فالفؤاد قريح  
 مالي رأيتك في الندي منكسا      وصبا، كأنك في الندي نطيح  
 خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة      إن القعود مع العيال قبيح  
 المال فيه مهابة وتجلسة      والفقر فيه مذلة وفضوح  
 ومن دوافعهم شعورهم بالإهانة وتلقي بعضهم إذلالا، كالشنفري من بنت سيده  
 له؛ فثار وانتقم فيقول: (٣٠)

ألا ليت شعري والتلهف ضلة      بما ضربت كف الفتاة هجينها  
 وللغوارق الاجتماعية دور في إثارة دوافعهم النفسية للتصعلك، فعروة بن الورد  
 يُعيرُ لأمه اليمانية الغريبة: (٣١)  
 هم عيروني أن أمي غريبة      وهل في كريم ماجد ما يعير؟!

(٢٨) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي الهاشمي

(الرياض: مطابع جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨١م)، ٢: ٥٧٩-٥٨٣.

(٢٩) عروة والسموأل، ديوانا، ٢٤.

(٣٠) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٧٩-١٩٥.

(٣١) عروة والسموأل، ديوانا، ٤٠.

وللون الأسود دور في تهيج دوافعهم النفسية للتصعلك، فالشنفري غليظ الشفتين وأم تأبط شرا والسليك سوداوان. (٣٢)

فشعروا بعزلة نفسية منهم الشنفري الذي اتخذ من الحيوانات المتوحشة المفترسة أهلا له، بدلاً من أهله لصفات فيها افتقدها في أهله: (٣٣)

ولي دونكم أهلون: سيد عمّلس\* وارقط زهلول وعرفاء جيال  
هم الرهط لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل  
وأشعره لونه بفاصل منعه من الزواج بابتة سلامان التي كان عندها هجيناً: (٣٤)  
إذا ما أروم الود بيني وبينها يوم يياض الوجه مني يمينها  
ألا ليت شعري والتلف ضلة بما ضربت كف الفتاة هجينها  
ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ضلت تقاصر دونها  
ومن الدوافع النفسية تردد النساء الزواج به كتأبط شرًا، لأن ترملها مرتين بأول لقاء مع العدو: (٣٥)

وقالوا لها: لا تنكحيه فإنه لأول فعل أن يلاقي مجمعا  
ومنه لدوافع نفسية كالثار، قال الشنفري: (٣٦)  
شفينا بعبد الله بعض غليلنا وعوف لدى المعدي أوان استهلّت  
ومن دوافع تصعلكهم «دفاعي» ليرد ما سلب منه شأن عمرو بن براق  
الهمداني: (٣٧)

(٣٢) انظر هذا عند: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ومؤسسة الخانجي بمصر، ١٩٥٨م)، ٥٨ «مادة شنفر»؛ الأيوبي، معجم الشعراء، ٢١٣.

(٣٣) القالي، ذيل الأمالي، ١: ٢٠٣-٢٠٦.

(٣٤) عبدالعزيز الميمني، الطرائف الأدبية، قسمان، الأول ديوان الأفوه الأودي، وديوان الشنفري وتسع قصائد نادرة (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.)، ٤٠.

(٣٥) أبو تمام، ديوان حماسته، شرح التبريزي، ١: ١٨٩؛ والإصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٥، «الأول نصل».

(٣٦) التبريزي، شرح المفضليات، ٣٩٧.

(٣٧) أبو تمام، كتاب الوحشيات، ط ٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٨م)، ٣١.

تقول سليمي: لا تعرض لتلفة      وليلك من ليل الصعاليك نائم  
 كأن حزيما إذا رجا أن أرددها      ويذهب مالي يا ابنة القوم حالم  
 متى تجمع القلب الذكي وصارما      وأنفا أبيا تجتنبك المظالم  
 وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم      فهل أنا في ذا يألهمدان ظالم؟!  
 ومن أسباب تصعلكهم كرههم البخيل وحرصه على نفع نفسه دون غيره كما يراه  
 عروة بن الورد: (٣٨)

وإني امرؤ عافي إنائي شركة      وأنت امرؤ عافي إنائك واحـد  
 أتهازأني إن سمت وأنت ترى      بوجهي شحوب الحق، والحق جاهد؟  
 ومن أسباب تصعلكهم شعورهم أنهم غير مرغوب فيهم وبحياتهم، فلا يبكي  
 عليهم أحد إذا ماتوا كالشنفري: (٣٩)  
 إذا ما أتتني ميتي لم أبالها      ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي

### ثانياً : التخطيط للغارة

لم تكن غارات الصعاليك على أعدائهم غارات عشوائية غير مدروسة، بل كانت بتخطيط مدبر مدروس؛ وذلك لمواجهة أعدائهم من القبائل التي كانت تدافع عن نفسها وتملكاتها بالغالي من نفس وسلاح، ولعله أمر بدهي أن يخطط لهم أعداؤهم تخطيطاً مضاداً، يحاولون فيه إفساد غارتهم، والقضاء عليهم؛ وعليه فقد أعمل كل طرف منهم فكره، وتخيلاً ومسرح العملية التي ستدور الغارة عليها، فعين الصعلوك المناسب للواجب المناسب، ودرسوا السبب في ذلك بعناية.

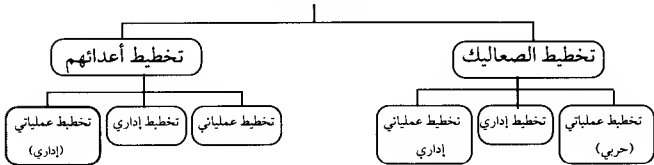
ولعل التخطيط الناجح يبنى على استخبارات دقيقة، عن العدو والأرض والأسلحة والطرق الآمنة، ومقارنة القوى بين الطرفين، وتباين نقاط الضعف والقوة ونحوها، في سبيل إنجاح غاراتهم، ويقال مثله عن أعدائهم الذين يستخبرون أمر الصعاليك وخططهم للتصدي لهم وإفشالهم في غاراتهم وبالتالي القضاء عليهم، أو مطاردتهم مخدولين دونما أسلاب على أقل تقدير.

(٣٨) عروة بن الورد والسموأل، ديوانا، ٢٩.

(٣٩) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٩؛ التبريزي، شرح المفضليات، ٢٠٦.

فكيف كان التخطيط من خلال سيرهم وأشعارهم؟ أكان تخطيطاً مدبراً مدروساً بني على حسابات دقيقة عن العدو والأرض والسلاح وعرفت نقاط القوة والضعف فيه، وحسب لكل منها حسابه؟ أم كان تخطيطاً سريعاً لم يأخذ للعدو حسابه؟ وهل كان ثمة تخطيط سريع لمواجهة العدو في ظروف طارئة غير متوقعة؟ أكل ذلك حسب ما تخيلوه من أحداث أو استناروا به بعد أن استخبروا نقاط قوة العدو وضعفه؟ وعليه، فيحسن أن ندرس التخطيط مشجراً على النحو التالي:

### التخطيط للغارة



أما تخطيط الصعاليك العملياتي (الحربي)، فيعني توظيف العنصر البشري «الصعلوك» وسلاحه في الغارة؛ وأما التخطيط الإداري، فهو إعداد خطط ناجحة لتقديم الطعام والشراب والعلاج وغيره للصعلوك في ميدان المعركة؛ وأما التخطيط العملياتي الإداري فهو مشترك بينهما.

ولعل تخطيط الصعاليك العملياتي «الحربي» برز مدبراً أعني بعد دراسة مستفيضة عن طبيعة مسرح العمليات، ذلك أن طبيعة جبال السراة الممتدة من الطائف جنوباً باتجاه اليمن هي أرض جبلية متصلة على نسق واحد من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام في جميع طول السراة يزيد كسر يوم في بعض هذه المواضع.<sup>(٤٠)</sup> وتعد منطقة السراة الجنوبي مكة أشد مناطق الحجاز خصبا.<sup>(٤١)</sup> وفي هذه المنطقة

(٤٠) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوخ الحوالي (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٩٩٠م)، ١١٦-١١٨.

(٤١) The Encyclopaedia of Islam, "Arabia," 1:368.

كانت تسكن قبيلتنا بجيلة والأزد؛ تستقبلان مطلع الشمس ببلدة تثلث وتربة وبيشة، وتربة تقع جنوبي شرقي الطائف بتسعين ميلاً وتحيط بـ «تربة» أراض زراعية. (٤٢) وبتحديد أدق كانت تسكن بجيلة في «حضرة الطائف» وتجاور سراة فهم. (٤٣)

ويبدو أن قبيلة بجيلة كانت ضعيفة وتسكن في حضرة الطائف الخصبة وهي مجاورة لسراة فهم، وعليه فقد حدد الصعاليك نوع الغارة عليها بعد تخطيط مدبر وعلى النحو التالي: حددوا غاراتهم عليها رجلة، لضعفها وعجزها عن ردهم فهي قبيلة عرفت بالضعف. (٤٤) وقرروا رجلة لها لا فرساناً لطبيعتها الجبلية التي تؤمن للصعاليك الفرار بين أوديتها وشعابها وجبالها معتمدين على لياقتهم البدنية العالية، بدليل أن تأبط شراً أغار ومعه عمرو بن براق على بجيلة، فلما خرجت في أثارهما مضياً هارين في جبال السراة، وركبا الحزن. (٤٥)

ويبدو أن تخطيطهم نجح في قتل عدد من بجيلة عندما خصص الصعاليك غارة بقيادة تأبط شراً، ومعه رفاقه من صعاليك فهم؛ جارة بجيلة يعززهم شذاذ من قبائل أخرى «حتى يبتوا، بالعوص وهو حي من بجيلة فقتلوا منهم نفراً وأخذوا لهم إبلاً» كما حدد عدد الغارة برجلين قاد تأبط شراً عمرو بن براق الفهمي «وأغاراً على بجيلة فأطردا لهم نعماً». (٤٦)

أما تخطيط أعداء الصعاليك، منهم قبيلة بجيلة، فصنوف منها ترصدهم للصعاليك على عين ماء، ومعرفتهم الدقيقة لكل صعلوك، ولتحقيق هدفهم بأسر تأبط

(٤٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٨٩؛ وعمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م)، ١: ١٥-١٨، ٦٣. وتقع «تربة» شمالي شرقي مكة المكرمة ويقع وادي «تثلث» شمالي شرقي أبها وتقع «بيشة» جنوبي شرقي أبها وشمالي شرقي «نجران»، وموقع أزد السراة شرقي «القنفذة» من عسير؛ انظر: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط ١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م)، خريطة رقم (٣٢)، ٥٤-٥٥.

(٤٣) البكري، معجم ما استعجم (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٥م)، ١: ٩٠.

(٤٤) خليف، الشعراء الصعاليك، ٨٣. ويبدو أن ضعفهم كان لحلاف نشب فيما بينهم فقتل خلق كثير منهم وتفرقت بطون بجيلة وتقطعوا في قبائل العرب؛ انظر: عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط ٦ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩١م)، ١: ٦٣-٦٤.

(٤٥) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٠.

(٤٦) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٤١.

شراً، تركوا رفيقه عمرو براق يشرب بحرية لأنه لم يكن المقصود لقلّة أهميته، وإغراء لتأبط شراً ليشرّب مثله وهو هدفهم. <sup>(٤٧)</sup> فقال تأبط بشراً يسجل نجاحه من بجيلة ويبرز خطته مفتخراً بعدوه الذي أنجاه: <sup>(٤٨)</sup>

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ألقيت للقوم يوم الروع أرواقي  
ومن تخطيط بجيلة إهمالهم لتأبط شراً إبلا عمداً ورصده ثلاثة من أشجعهم،  
فضللهم عن موقد نار أشعلها، ثم زحف من موقعه المرصود إلى موقع جديد بين الإبل  
خشية أن يكون أحد رآه وهو لا يعلم فهو لا يأبي إلا الحذر والأخذ بالحزم، ونام متهيئاً  
للقاتل وسهمه على قوسه فقتل اثنين من الرصدة وهرب الثالث، وهو حاجز بن أبي،  
فقال معتزاً بتخطيطه السريع في المواقف الطارئة وبحيلته: <sup>(٤٩)</sup>

ترجى نساء الأزد طلعة ثابت أسيراً، ولم يدرين كيف حولي؟  
مهدت لهم حتى إذا طاب روعهم إلى المهد، خاتلت الضيا بختيل  
ومن تخطيط الصعاليك العملياتي السريع أن يدفن تأبط شراً سيفه، بالقرب من  
منزل بيت من بجيلة فيه رجل وامرأة يصطليان على النار، ويشكو إليها الجوع والحاجة،  
فلما أكرمها تناوم، فقتل مضيفه وخادم مضيفه، وظفر بامرأتهما وذهب بالإبل. إنه  
بالتنكر والخدعة، وبتخطيط الفاتك نجح في غارته وأعرس بزوجة مضيفه وقال: <sup>(٥٠)</sup>

بحليلة البجلي بت من ليلها بين الأزار وكشحها ثم الصق  
بأنيسة طويت على مطويها طي الحماله أو كطي المنطق

ومثله فعل السليك بن السليكة بتخطيط عملياتي مدبر وسريع وحسب مقتضيات  
الظروف المواتية، إذ خرج السليك يقود رفيقين له عشية فيها ضباب ومطر؛ حتى أتوا بيتاً  
منفرداً فحدد السليك واجبات أفراد الغارة، وخطط لهم، فحدد منطقة اجتماع لهما  
ينتظر أنه فيها، ثم رصد حركات الشيخ وهو يعشي سوامه، حتى إذا غطى الشيخ  
وجهه من البرد، وحانت الفرصة للسليك قتله، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث

(٤٧) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٠ - ١٣١.

(٤٨) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٣.

(٤٩) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٣ - ١٥٤.

(٥٠) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٠.



ينتظر انه : (٥١)

وعاشية راحت بطانا ذعرتها  
كأن عليه لون برد محبّر  
فبات له أهل خلاء فناؤهم  
وباتوا يظنون الظنون وصحبي  
بسوط قتيل وسطها يتسيف  
إذا ما أتاه صارم يتلهف  
ومرت بهم طير فلم يتعيفوا  
إذا ما علوا نشزأ أهلكوا وأوجفوا

ويخطط الصعاليك تخطيطاً مزدوجاً أحياناً: عملياتها وإداريا شأن تأبط شرّاً الذي خرج إلى غار من بلاد هذيل ليستار عسلاً، ويبدو أنه اعتاد أن يشتار منه كل عام. ويخطط بنو هذيل لما علموا به، فيجدون فرصتهم لقتله، فحاصروه في الغار وطلبوا إليه التسليم أو القتل، لكنه راوغهم وأسأل عسلاً على فم الغار، ثم عمد إلى زق فشده على صدره، ثم لصق بالعسل ولم يزل يزلق، حتى جاء سليماً إلى أسفل الجبل، فنهض وفاتهم، وكان قد نقب في الغار نقباً ليهرب منه عند الضرورة. لقد سعى إلى جني العسل ليتغذى، وعلم به خصمه على نحو من جمع استخبارات دقيقة عنه، وطوقا الغار، ولكنه نجح فجمع تخطيطين بأن مدبراً بالنقب في الغار عند الضرورة، وسريعاً يزق العسل ينزلق منه، وهما تخطيطان متضادان كما ترى، فيهما دروس عملياتية وإدارية، وتخطيط بدهاء ومكر، لقد حفظ تأبط شرّاً الدرس نظرياً وقام بتطبيقه عملياً، فيقول مفتخراً بعد أن نجح وترك خصمه يتحسر لإفلاته: (٥٢)

أقول للحيان وقد صفرت لهم  
لكم خصلة إما أسار ومنه  
وطابي، ويومي ضيق الجحر معور  
وإما دم، والقتل بالحر أجدر  
وأخرى أصادي النفس عنها وإنها  
لمورد حزم، أن فعلت ومصدر  
فرشت لها صدري فزل عن الصفا  
به جوّجو عبل ومتن مخصر  
فأبت إلى فهم ولم أك أياً  
وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

وخطط السليك بن السلكة عملياتها إدارياً ليغير على خصمه في جوف مراد في سبأ، فحدد أيام الصيف زماناً، لأنه يضمن انقطاع غارة الخيل في أرض صحراوية،

(٥١) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٣ - ١٤٥ (طبعة بولاق).

(٥٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٠؛ وانظر: جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، طبع على نفقة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، ط ١ (الدوحة: الدار العربية للكتاب، ١٩٦٤م)، ٢: ٢٤٩.

وهو لا يملك إلا قدميه يعدو بهما أمام الخيل ولعله تخطيط ناجح، وليدير «موارد تموينه» في طريق غاراته الجدياء، من ماء كان جمعه في بيض نعام أيام الربيع ثم دفنه، لمثل هذه الأيام الصعاب في طريقه، فأفاد منه وحرّم عدوه وخيله من هذه الميزة، بفضل تخطيطه الإداري، ونقاط تموينه. فكان فيما يقال: «أدل عليها من قطاة، يجيء حتى يقف على البيضة». (٥٣)

ويفهم مما سبق أن تخطيطهم للغارة كانت دروساً يحضر لها، وهي أشبه بخطط مدبرة وخطط معاكسة لها، وفيها إفادة من قوة العدو وضعفه؛ لوضع الخطة المناسبة في كل حالة من حالاته كما ترى.

ولعل غارات عروة بن الورد فارساً لا راجلاً، أن يكون دليلاً على تخطيطهم في غاراتهم حسبما تمليه طبيعة الأرض، وقوة العدو المواجهة لهم؛ فعروة بن الورد كان يغير على منطقة نجد وشمال الجزيرة العربية على خيل أحياناً كما بينه شعره؛ لأن هذه المناطق كانت خصبة ومرعى خيول «ففي نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها». (٥٤)

فها هو مثلاً يغير على خصمه بسربة من خيل: (٥٥)

فإني لمستاف البلاد بسربة فمبلغ نفسي عذرها أو مطوف  
وها هو يغير على خصومه ليلاً ونهاراً: (٥٦)

ولقد أتيتكم بليل دامس ولقد أتيت سراتكم بنهار  
ثم ها هو ذا يحدد نوعين من غاراته: راجلاً حيناً وفارساً حيناً آخر؛ في مسرحين من غارات على خصومه في «نجد وعرعر» بالقرب من سراة جنب وهو واد لطيف. (٥٧)

ويتوعد بتوزيع غاراته فيوماً على أهل نجد ويوماً على أهل الجبل في عرعر: (٥٨)

(٥٣) انظر ذلك عند: ابن واصل الحموي، تجريد الأغاني، تحقيق طه حسين وإبراهيم الأبياري (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٩م)، ٢١٥٠؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١: ٣٦٦؛ الأصفهاني، كتاب الأغاني، ١٨: ١٣٣-١٣٥.

(٥٤) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، ط ٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩م)، ٦٢.

(٥٥) عروة بن الورد والسموأل، ديوانا، ٥٢.

(٥٦) عروة بن الورد والسموأل، ديوانا، ٤٢.

(٥٧) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١٣٠-٢٩٤.

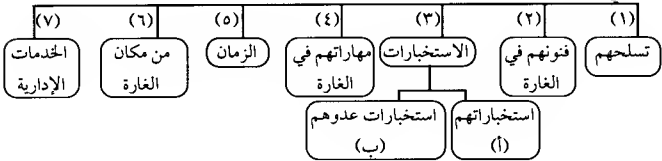
(٥٨) عروة بن الورد والسموأل، ديوانا، ٣٨.

سنفرع بعد اليأس من لا يخافنا      كواسع في أخرى السوام المنفر  
نطاعن عنها أول القوم بالقنسا      وبيض خفاف، ذات لون مشهر  
فيوماً على نجد وغارات أهلها      ويوماً بأرض ذات شت وعرعر

### ثالثاً : التنفيذ

وتنفيذ الغارة يعد الاختبار النهائي لفهم دروس التحضير السابقة لها، مما كان من إعداد خطط ومعرفة بالأرض والعدو، واستخلاص نقاط القوة والضعف بعد تقدير موقف دقيق، وعليه فإن التنفيذ هو الإجراء النهائي الذي به يدرك نجاح الغارة أو إخفاقها. فكيف كان تنفيذهم لعمليات الإغارة، كما جاء في سير حياتهم وأشعارهم؟ وما تسليحهم؟ ولعل أبرز خطوات التنفيذ يمكن أن تدرس مشجرة في محاور على النحو

التالي :



### (١)

أما تسليحهم فمتعدد، فهم يعتزون به اعتزازاً لا حد له، كيف لا وسلاحهم رفيقهم في غاراتهم في صحارى تشط فيها حيوانات من صنوف شتى؟ وإذا كان العربي يعتز بحمل السلاح عامة، فإن الصعلوك - بحق - لأشد اعتزازاً بحمله خاصة.

ومن أهم الأسلحة التي برزت في شعرهم: السيف والقوس والرمح وكنانة السهام وغيرها. أما السيف، فبرز عندهم سلاحهم الأول، ولعل باقي الأسلحة تعد إضافية تُدخّر لظروف أخرى، والسيف صنوف، منها السيف اليماني الذي يصطحبه تائب شراً في ركوبه الأهوال وحيداً: (٥٩)

(٥٩) أبو تمام، ديوان حماسه، شرح التبريزي، ١: ٣٤١ في الرثاء.

يركب الهول وحيداً ولا يصحبه إلا اليماني الأفلّ

وبالسيف اليماني يقتل به الغول فيظل تأبط شراً متكناً عليها حتى الصباح، ليتفحص تلك المخلوقة التي اعترضته ليلاً، وعلى الرغم من تشكك الجاحظ بإمكانية قتل الغول ونفي وجوده، وعزاه لسببين: أحدهما للاستيحاش الذي يمثل الشيء الصغير كبيراً، فيرى ما لا يرى، وثانيهما أن راوي الأشعار هذه لا يرويه إلا لأعرابي عامي مثله. (٦٠)  
غير أن تأبط شراً، على ما عهدناه فيه من سيرته وشعره، ذو قلب لا يرتجف حتى عند الأحوال المرعبات، مما يحملنا على الاعتقاد أنه إن لم يقتل الغول فعلاً فقد قتل حيواناً بشعاً ومرعباً من فصيلة القروذ.

ولعل نظرة إلى شجاعته تثبت رباطة جنانة حين ارتعد قلب غيره من الأبطال عند صدام الأعداء. (٦١) وبسيفه اليماني المصقول أهوى على الغول وضربها بلا دهش، فخرت على وجهها فاتكاً عليها ليلته ليتأكد من خلقتها في اليوم التالي؛ وإذ هي كرأس كلب وبساقين أخذجين غير مكتملي الحلقة ولسان مشقوق. (٦٢)

وإني قد لقيت الغول تهوي      بسهب كالصحيفة صحصحان  
فقلت لها كلانا نضو أيمن      أخو سفر فخلّي عن مكاني  
فشدت شدة نحوي فأهوى      لها كفي بمصقول يمانني

\*\*\*

فأضربها بلا دهش فخرت      صريعاً لليدين وللجـرّان  
فلم أنفك متكناً عليها      لأنظر مصبها ماذا دهاني؟  
إذا عينان في رأس قبيح      كرأس الهر مشقوق اللسان  
وساقاً مخدج وشواة كلب      وثوب من عباء أو شـنّان

(٦٠) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي، د.ت.)، ٦: ٢٥٠-٢٥١.

(٦١) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٨.

(٦٢) الأصفهاني، الأغاني، ٢١: ١٢٩. ونسب الجاحظ القصيدة إلى أبي البلاد الطهوي؛ الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٣ (بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي، منشورات محمد الدانة، ١٩٦٩م)، ١: ٢٣٤؛ وانظر الغول عنده، ٧: ٣٤٠.

ومن سيوفهم المهند للشنفري، حاد قاطع ذولون أبيض: (٦٣)  
 وأبيض من ماء الحديد مهند مجذ لأطراف السواعد مقطف  
 ومن سيوفهم الحسام الأبيض، الحاد القاطع، لونه كالملح وثمرته باهظ بألف  
 درهم، نقدتها عند شرائه بسماحة نفس، وطيب خاطر في وقت قلت فيه الدراهم  
 وشحت؛ إنه سلاح عمرو بن براق: (٦٤)

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم؟  
 صموت إذا عض الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين ملازم  
 ولعل تعلقهم بلونه الأبيض أن يكون كناية عن صفة المضاء؛ ذلك أن عروة  
 والشنفري وعمرو بن براق وقيس بن الحداية أشاروا إلى اللون الأبيض في سيوفهم  
 فعروة يقول: (٦٥)

بكفي من المأثور كالملح لونه حديث بإخلاص الذكورة قاطع  
 ومثله الشنفري يستغني بسيفه الأبيض عن عون الناس وصدقاتهم فيقول: (٦٦)  
 ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع وأبيض أصليت، وصفراء عيطل  
 وعمرو بن براق لا يرضى لسيفه الأبيض إلا تضرب الجماجم: (٦٧)  
 فلا صلح حتى تقدح الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم  
 وقيس بن الحداية يوظف السيف الأبيض والقنا مهوراً يستحلون بها نساء  
 أعدائهم: (٦٨)

وإن بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكحاً

- 
- (٦٣) الميمني، الطرائف الأدبية، ٣٧؛ والأصبهاني، الأغاني، ٢١، ١٨٩-١٩٠.  
 (٦٤) الأصبهاني، الأغاني، ٢١؛ ١٧٥؛ الحسن الهمداني، الأكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير  
 (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، ٢٠٢.  
 (٦٥) عروة بن الورد والسموأل، ديوانا، ٥٠.  
 (٦٦) ابن درهم، نزهة الأبصار، ٧٣١.  
 (٦٧) القالي، الأمالي (القاهرة: مطبعة السعادة، د. ت.)، ٢: ١١٩؛ القالي، كتاب ذيل الأمالي،  
 ٢٠٦: ١.  
 (٦٨) الأصبهاني، الأغاني (القاهرة: مطبعة وزارة التربية والتعليم، ١٩٥٨م)، ١٤: ١٤٤.

ومن أسلحتهم في غاراتهم السهم والقوس ، وهما من أدوات الصعلوك في ترصده وهجومه ودفاعه الفردي ، ولعل السهم يعد سلاحاً بعيد المدى في الإصابة ، ولا يضطره إلى الاصطدام المباشر مع العدو وجهاً لوجه ، كما يحدث معه بالسيف ، والسهم يحتاج إلى كنانة تجمعها احتياطاً للنزال ؛ فالشنفري يصف أهمية السهم للصعلوك ويشيد بحمل ثلاثين سهماً في كنانته جاهزة للقتال شأن وصفه لتأبط شرّاً بأم عيال : (٦٩)

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً إذا آنست أولى العدي أقشعرت  
ثم :

إذا فرعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفراها ثم سلّت  
والقوس من أدوات السهم التي تنطلق عنها ، وعليه فاهتمامهم بالسهم منعكس على القوس أيضاً ، وللقوس عند الشنفري سمتان هما : اللون الأصفر والصوت . أما اللون الأصفر فتغير من حرارة الشمس وتقلبات الطقس من حر وقر ؛ وأما الصوت فله اندفاع شديد في الفضاء بأنة حزن ثكلى ، وصوته صوت نحل إذا ما أخطأ غاره وخلياه ، فتنتابه نوبة من دوي هائل . وقوسه مرصعة وثمانية : (٧٠)

هتوف من الملس الحسان يزينها رصائع قد نيطت إليها ومحمل  
إذا زلّ عنها السهم حنت كأنها مرزاة ثكلى ترن وتعول  
وقوله :

وصفراء من نبع أبيّ ظهير — ترن كإرنان الشجي وتهتف  
كان حفيف النبل من فوق عَجْسِها عواذب نحل أخطأ الغار مطنف  
ويحدثنا الشنفري عن طريقة رمايته القوس والسهم ، وأنيها بين كفيه أنين الجريح ، فيودي بالباسل ، ويصرع الشجاع بسهمه النافذ المعتدل السهم ، وريشه نسر الخط ؛ لأنه من شجرة صلبة : (٧١)

(٦٩) التبريزي، شرح المفصليات، ٣٧٩-٣٩٧؛ البيتان ٢٣ و ٢٥ .

(٧٠) القالي، ذيل الأمالي، ١ : ٢٠١، ٢٠٦؛ والأصفهاني، الأغاني، ٢١ : ١٦٠ على التوالي .

(٧١) الأصبهاني، الأغاني، ٢١ : ١٩٢ .

ومستبسل ضافي القميص ضممته بأزرق لا نكس ولا متعوج  
عليه نساري على خوط نبعة وفوق كعقوب القطاة محدرج  
وقاربت من كفي ثم فرجتها بنزع إذا ما استكره النزع مخلج  
فصاحت بكفي صبيحة ثم رجعت أنين الأميم ذي الجراح المشجج  
والقوس ركبت بعناية بعد أن اختيرت من شجر قاس، برى الشنفرى سهامه برياً  
خاصاً لأعدائه: (٧٢)

أركبها في كل أحمر غائر وأنسج للولدان ما هو مقرف  
وتابعت فيه البري حتى تركته يرف إذا أنفذته ويزفـف  
بكفي منها للبغيض كراهة إذا بعث حلا ما له متخوف  
ومن أسلحتهم الرمح الذي يغلب توظيفه في الحرب، ولكنه لم يكن مستفيضاً  
في حديثهم، ويبدو أن له واجبين في شعرهم: في الحرب والصيد، فرمح عروة بن  
الورد أسمر القناة دائم الغلبة: (٧٣)

وأسمر خطي القناة مثقف وأجرد عريان السراة طويل  
وهو طير من السنان المحدد أسمر اللون: (٧٤)  
بكل رقاق الشفرتين مهند ولدن من الخطي قد طر أسمرا  
والرمح يعيد لعمر بن براق ما سلبه منه أعداؤه، وهو من عناصر القوة التي لا  
يستغني عنها: (٧٥)

ولا صلح حتى تقرع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم  
ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعيش ذا غنى أو تخترمه المخارم

(٧٢) ابن درهم، نزهة الأبصار، ٧٢٣.

(٧٣) الحسن القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (القاهرة: مطبعة السعادة، د. ت. ٢، ٣٥، وأنشده بالإقواء.

(٧٤) عروة بن الورد، ديوانه (القاهرة: مطبعة السعادة، د. ت. ٩٧.

(٧٥) أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي، المؤلف والمختلف، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦١م)، ٢٨، وعنده ذو اسمان: ابن براق وابن براق.

ومن واجب الرمح الاصطياد به وهو الحاجة اللازمة لطعام الصعاليك، فينغرز في صدور حمر الوحش: (٧٦)

فشامت في صدورهما رماحا من الخطي أشربت السما  
ومن أسلحتهم لوقاية الجسم الدرع والترس، وقد خفتتا في شعر الصعاليك،  
ويبدو أن لثقلهما وخاصة الدرع وشجاعة الصعاليك دورين في عدم استخدامهما، أو  
التقليل من توظيفهما، وذلك لما تتطلبه مجريات الإغارة من سرعة وخفة، غير أن قيس  
بن الحدايدة، وقد كان فارساً في قومه قبل التصعلك، لبس الدرع بعد أن خلعه قومه  
فيقول: (٧٧)

وأصبحت بعد الأئس لابس جبة أساقي الكماة الدارعين العوالي  
وأما الترس فخفيف الحمل، يناسب الصعلوك للدفاع عن مواطن القتل في  
جسمه؛ فمنهم من يؤثر جلد الثور ترسا يقي به السهام عنه، لا حديدًا به وصلابته كصخر  
الغيل: (٧٨)

أنني سينهي عني وعيدهم بيض رهاب ومجنا أجد

## (٢)

وبرزت في غاراتهم المفاجأة نفذا الشنفرى في ليلة عطشاء ماطرة، وقد استبد به  
الجوع والخوف ورعدة البرد، وقد عاد من حيث انطلق سالماً بعد أن حقق هدفه، تاركاً  
خلفه أعداءه متسائلين: من ذاك الذي طردهم ليلاً في ذلك الجو القروور؟! أيعقل أن  
يكون إنساً؟ أم هو جن طردهم ليلاً؟ ياللهول! إن كان إنساً فما كها الإنس تفعل،  
بأسلوب قصصي نفسي متشف: (٧٩)

(٧٦) السكري، شرح ديوان الهذليين (القاهرة: مطبعة دار الكتاب المصرية، د. ت.)، ٢: ٦٦.

(٧٧) الأصبهاني، الأغاني، ١٤: ١٥٤.

(٧٨) السكري، شرح ديوان الهذليين، ٢: ٥٩.

(٧٩) انظر: القالي، ذيل الأمالي، ٢٠٣-٢٠٦؛ عبد القادر بن عمر البغدادي، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق  
عبد العزيز رياح وأحمد يوسف، ط ١ (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨١م)، ٣: ١٩٣؛ كارل بروكلمان،  
تاريخ الأدب العربي، تعريب عبد الحليم النجار (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ١: ١٠٥؛ الشنفرى، لامية  
العرب - نشيد الصحراء لشاعر الأزدي الشنفرى (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥م)، ٧٤ وما بعدها.



وليلة نحس يصطلبي القوس ربهـا      واقطعه اللاتي بها يتنبـل  
دعست على غطش وبغش، وصحبتي      شعار وارزیز ووجر وأفکل  
فأيت نسوانا، وأیتمت إـلـدة      وعدت كما أبدأت واللیل أیل  
وأصبح عني بالغميصاء جالسـا      فريقان مسؤول وآخر يسأل  
فقالوا: لقد هـرّت للیل کلابنـا      فقلنا: أذئب عسّ أم عسّ فرعل؟  
فلم تک إلا نبأة ثم هو مـت      فقلنا: قطاة ریع أم ریع أجـدل؟  
فإن یک من جن لأبرح طارقـا      وإن یک إنسا ما کها الإنس تفعل

وللحرب النفسية دور في الغارة والتي تعني: «المحاربة التي ميدانها العقل والنفس والروح، وهدفها حمل الخصم على فقد الثقة بنفسه ومقدرته وطاقته؛ بحيث يبدو وكأنه صار مغلوباً دونما قتال؛ وذلك بالسعي للسيطرة على إرادته وشل تفكيره وحمله على الاقتناع ببعظه وقصر باعه، وصرفه عن التفكير بالمواجهة الدموية».<sup>(٨٠)</sup>

ويدو أن لأسماء الصعاليك دوراً في حربهم النفسية «في تنفيذ بعض غاراتهم، ذلك أن قلوب أعدائهم تنخلع كلما سمعوها، ولا سيما في غاراتهم الناجحة على عدوهم، وسمات السرعة التي لا تدركهم بها خيولهم عند ملاحقاتهم، ولعل حوار الثقفي لتأبط شرّاً أن يعزز ما يذهب إليه من استشرء الرعب في قلوب أعدائهم؛ فالثقفی یسأل تأبط شرّاً بم یغلب الرجال علی دمامته؟ فیقول له تأبط شرّاً: باسمی؛ إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل: أنا تأبط شرّاً فینخلع قلبه حتی أنال منه ما أردت.» ويستبدل اسمه بحلة الثقفي فيتندر به تأبط شرّاً ويخاطب زوجة الثقفي متهمكاً بزواجها ساخرّاً من لقبه الجديد: (٨١)

ألا هل أتى الحساء أن حليلها      تأبط شرّاً، واكتنيت أبا وهـب  
فهبه تسمى اسمي وسميت باسمه      فأین له صبري علی معظم الخطب؟  
وأین له بأس كبأسي وسورتی؟      وأین له فی کل فادحة قلبی؟  
وبرزت في غارتهم مهاجمتهم البيت المنفرد ولعلّ فنهـم هذا یعد حتی عصرنا  
الحاضر من فنون حرب العصابات، وهو ذو طابع هجومي تمثله الغارة على المواقع

(٨٠) محمد أسد الله، صفاء، الحرب، ط ١ (بيروت: الشركة اللبنانية للطباعة والإعلام، ١٩٨١م)، ٢٦.

(٨١) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٠.

المنعزلة. <sup>(٨٢)</sup> ذلك أن السليك بن السليكة خرج مع رفيقيه عشية يريدون الغارة فأتوا بيتا منفرداً، فرصدوا صاحبه، حتى خرج يعشي سوامه وغطى وجهه بردائه من البرد فقتله السليك وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره أصحابه، ويبدو أنه حدد لهما نقطة اجتماع، على ما يعهد في تنظيم أمر مثل هذه الغارات فسجل السليك هذه الغارة الناجحة مفتخراً بما سلبه، وساخرًا بأهل القتل وظنونهم بأسباب تأخره عنهم. <sup>(٨٣)</sup>

كما ظهرت في غارتهم معالجتهم للأمور الطارئة وتشجيع الخائف وحمايته ليطمئن، شأن تأبط شرًا وحمايته لرفيقه مرة بن خلف الذي أرعدت عضده، وخاف من القتل فحماء تأبط شرًا بظهوره ونجيا بعد أن جرح تأبط شرًا، فسجل هذه الحادثة: <sup>(٨٤)</sup>

وقلت له: كن خلف ظهري فإنني سأفديك، وانظر بعد ما أنا فاعل  
فعاد بحد السيف صاحب أمرهم وخلوا عن الشيء الذي لم يحاولوا  
وأخطأهم قتلي، ورفعت صاحبي على الليل، لم تؤخذ عليه المخايل

وفي غاراتهم تحديد واجبات كل فرد فيهم من جهة وتطبيق قاعدة الإسناد والهجوم من جهة أخرى، كذلك الغارة التي كانت تتألف من ثمانية صعاليك، فيهم تأبط شرًا والمسيب، وواجبهما الهجوم على العدو بالسيف، ومنهم الشنفرى وآخرون، وواجبهم حماية قسم الاقتحام كما في شعر الشنفرى: <sup>(٨٥)</sup>

فشن عليهم هزة السيف ثابت وصمم فيهم بالحسام المسيب  
وظلت بفتيان معي أتقيهم بهن قليلاً ساعة ثم جنبوا  
نسوق بنسر كل ريع وتلعة ثمانية والقوم رجل ومقنب

وأظهروا من مبادئ قتالهم مبدأ هروبهم أمام عدوهم، ولعله من قواعد حرب العصابات حتى الآن على ما يراه ماوتسي تونغ، إذ عد التراجع المنهجي أمام تقدم معاد قوي من قواعد حرب العصابات، لأن المعركة ساعدت بينهما غير متكافئة. <sup>(٨٦)</sup>

(٨٢) هيثم الأيوبي وآخرون، الموسوعة العسكرية، ط ١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م)، ١: ٧٢٤.

(٨٣) الأصبهاني، الأغاني، ١٨: ١٣٤-١٣٥؛ الميداني، مجمع الأمثال (القاهرة: طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ)، ١: ٣٩٩، وقد أشرت إلى الحادثة ذات الرقم (٥١) في البحث.

(٨٤) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٨.

(٨٥) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٢؛ والميمني، الطرائف الأدبية، ٣١-٣٢.

(٨٦) الأيوبي وآخرون، الموسوعة العسكرية؛ تكتيك حرب العصابات وقواعد حربيهم، ١: ٧٢٥.

وعليه فلا يجد الصعلوك حرجاً في هزيمته أمام عدوه حتى لو اضطر أن يترك أصحابه الصعاليك - على حرصه على سلامتهم - في أرض المعركة لينجو بنفسه، شأن تأبط شراً الذي نفذت سهامه وفر بعد ذلك لما رأى دفاع العدو قنفذياً يهاجمونه من جميع الجهات، فلنسمعه فيلسف هزيمته ويبين أسبابها لزوجته التي تلومه لتركها ابن عم لها صعلوكاً كان معه: (٨٧)

تقول: تركت صاحباً لك ضائعاً      وجئت إلينا فارغاً متباطئاً  
إذا ما تركت صاحبي لثلاثة      أو اثنين مثلينا فلا أبت آمننا  
وما كنت أباء على الخل إذ دعا      ولا المرء يدعوني ممراً مدهاننا  
فالقوم من عوص مسلحون، وهجومهم عليه «قنفذي» فيهرب خشية دهمه وقتله: (٨٨)

وكري إذا أكرهت رهط وأهله      وأرضا يكون العوص فيها عجاننا  
ولم أنتظر أن يدهموني كأنهم      ورائي نحل في الخلية واهنا  
وتارة يهرب ناجياً بسليه      وهو سبب مقنع في نظره: (٨٩)  
حتى نجوت ولما يأخذوا سلمي      بواله من قنيص الشد غيداق  
والهرب عندهم مفخرة لا مسبة، لأنه فرار من قتل محقق كما يفخر حاجز الأسد بسرعته للنجاة: (٩٠)

عشية كادت عامر يقتلــــــــــــــــوني      لدى طرف السلماء راغية البكر  
فما الظبي أحطت حلقة الظفر رجلة      وقد كاد يلقي الموت في حلقة الظفر  
ويفدي حاجز رجليه اللتين أنقذتاه من القتل بأمه وخالته؛ فهما سلاحه الرئيس في النجاة: (٩١)

فدا لكما رجليّ أمي وخالتي      وشد كما بين الربي والأثائب  
حططت على جنبي الشمال وعيقوا      حطوط رباع محضر الحرب قارب

(٨٧) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٥.

(٨٨) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٥.

(٨٩) البحري، حماسه، ٥٢.

(٩٠) البحري، حماسه، ٥٠.

(٩١) البحري، حماسه، ٤٩-٥٠.

والشنفرى على سرعته يترك حذاءه عند الهزيمة تخففاً وطلباً لمزيد السرعة وخلقها المعيق لسرعته: (٩٢)

ونعل كأشلاء السماء تركتها على جنب مور كالنحيزة أغبرا

### (٣)

واعتمد الصعاليك على استخبارات دقيقة عن أعدائهم، بطرق شتى أبرزها التنكر والتحايل بالفقر شأن تأبط شرّاً الذي دفن سيفه، وتنكر برجل بئس فقير؛ يشكو إلى رجل بجلي فقره وجوعه، فلما أكرمه وعرف قوته المؤلفة من عبده وزوجته الأمة، تناوم ثم قتل مضيفه وعبده وعرسّ بالسيدة وذهب بالإبل وسجل هذه الحادثة الناجحة: (٩٣)

بحليلة البجلي بت من ليلها بين الأزار وكشعها ثم الصق  
كما يستخبرون قوة عدوهم بالتنكر، شأن السليك ورفيقه مع الرعاة في جوف  
مراد باليمن فقال لهما: «كونا مني قريين حتى آتي الرعاء فأعلم لكما علم الحي أقرب  
هو أم بعيد؟ فإن كان قريباً رجعت إليكما، وإن كان بعيداً قلت لكم قولاً فاعبرا على من  
يليكما.» وحدد لهما فيما يبدو نقطة اجتماع، ولما استخبر الأمر علم أن الحي بعيد،  
فغنى السليك ليطرب الرعاء، ولينهبا الإبل فهو «أشبه برموز الشيفرة» في عصرنا فأغاراً  
على الإبل وسلبها. (٩٤)

يا صاحبي، ألا لا حي بالوادي إلا عبيد وآم بـيين أذواد  
انتظران قليلاً ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي؟  
ومن طرق استخباراتهم توظيفهم عنصر الدلالة والهداية فيما بين تأبط شرّاً ومرة  
ابن خلف، فلما كانت هداية مرة بن خلف نعس فجار عن الطريق حتى وقعا بين جبال  
ليس فيها جبل متقارب، وإذا البيض والفراخ بظهور الأكم، ومياه يصيح الطير عليها

(٩٢) الميمني، الطرائف الأدبية، ٣٥.

(٩٣) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٠.

(٩٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢٣٥، وعنده (الريح للعادي)، بمعنى الغلبة والقوة، تحقيق أحمد

محمد شاكر، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، ١: ٣٧٣.

فقال تأبط شرّاً: هلكننا واللات يا مرة، ماوطىء هذا المكان إنس قبلنا! وأفاد بكشفه الموقع استخبارات دقيقة عن الموقع المذكور. (٩٥)

ومنها استراقهم السمع لأصوات عدوهم بالليل خاصة، فكان يضرب المثل بقوة مسمعي تأبط شرّاً؛ إذ كان يسمع وجيب قلوب الكمائن من أعدائه؛ وذلك بأن يصيح بمسمعيه إلى الأرض يتسمع. (٩٦)

ومنها توظيفهم سرعتهم لإنذار قومهم من الأعداء شأن السليك وإنذار قومه. (٩٧)

ومن طرق استخباراتهم وقد أكثروا الشعر فيها هي المراقبات، حيث يتخذ الصعاليك موقعاً متوثباً ومراقباً من فوق على الجبال المشرفة على المناطق من حولها، وواجبهم رصد العدو، واستخبار أمره، وإعلام الصعاليك لاتخاذ الإجراءات المناسبة. فهذا أبو خراش الهذلي يصف مراقبة تكشف ما حولها، وهو أهم الواجبات للمراقب فيقول: (٩٨)

لست لمرة إن أوف مرقبة يبدو لي الحرث فيها والمقاضيب  
والمراقب الراصد حذر في تحركاته، ولذا يغلب عليه الثبات كأنه صنم، ولعله تلفت طريف إذ أن كثرة الحركات تكشفه، وتفشل خطته إذ المقصود أن يستخبر أمر الخصم ولا يستخبروه، فيشيد أبو خراش بالراصد المتربص في مرقبه كالصنم، لكنه خفيف الجسم، نشيط: (٩٩)

يظل في رأسها كأنه زلم من القداح به خرس وتعقيب  
سمح من القوم، عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنابيب

(٩٥) الأصبهاني، كتاب الأغاني، ٢١: ١٥٨.

(٩٦) انظر مثلاً عند: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١: ٣٦٦؛ البغدادي، خزائن الأدب، ٣: ٣٤٦؛

الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٣١-١٣٢.

(٩٧) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢: ٦٦٤؛ محمود أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي،

ط ٢ (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٣م)، ٨٠.

(٩٨) أبو ناجي، الشنفرى، ٧٨.

(٩٩) عروة بن الورد والسموأل، ديوانا، ٥٥.

والمراقب يقلب الأرض والفضاء بطرفه، يتصب كأصل شجرة؛ لا يبرح مكانه ولا يتحرك - فالحركة تكشفه - يبدو نشيطاً في عمله، فيحرس المنطقة ويعطي إنذاراً أولياً عن العدو، خاصة إذا انشغل عروة بن الورد بالطهي في منهل مخوف؛ ولعله تنبه طريف، واحتراف في أمر الجندية المعاصرة فيقول: (١٠٠)

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة      بعثنا ربيثاً في المرابيء كالجلذل  
يقلب في الأرض الفضاء، بطرفه      وهن مناخات، ومرجلنا يغلي  
ويتخذ المراقب التوثب شعاراً له، فيقعي فوق المراقبة، لواجين هما: ليغنم  
الغازي أو ليدرك الثأر شأن الشنفري. (١٠١)

ومراقبة شماء أقيعت فوقها      ليغنم غاز، أو ليدرك ثأر  
ويستأنف المراقب واجبه على المراقبة ليس في النهار فحسب، بل في الليل أيضاً،  
إذ يرصد خصمه وهو في أعلاها - ولكن لا يبدو لي قمتها - بل يرصد في سفحها لأن  
تجنب خط الأفق ضرورة لازمة يمكن كشفها من بعيد، إلا إذا طبق - على ما يدرك - من  
مهارات المعركة كالاختباء والزحف والترقب، وهو راقد على حد ذراعيه والليل يلتف  
حوله محدقاً به: (١٠٢)

ومراقبة عطاء يقصر دونها      أخو الضرورة الرجل الخفيف المشفق  
نمت إلى أعلى ذراها وقد دنا      من الليل ملتف الحديقة أسدف  
فبت على حد الذراعين مجذياً      كما يتطوى الأرقش المتقصف  
والمراقبة عند تأبط شرّاً تعلو سائر المرقبات، معقدة ذات تجاعيد كعجوز شمطاء  
ترتدي ثياباً بالية، ينتهض إليها بعد أن ينتصف الليل لينفذ خطته: (١٠٣)

ومراقبة يا أم عمرو طمرة      مذبذبة فوق المراقب عطل  
نهضت إليها من جثوم كأنها      عجوز عليها هدمل ذات خيعل

(١٠٠) ابن درهم، نزهة الأبصار، ٧٢٣.

(١٠١) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٨٩-١٩٠؛ ابن منظور، لسان العرب (مادة هدمل وجثم)؛  
خليف، الشعراء الصعاليك، ١٨٩.

(١٠٢) الأصبهاني، الأغاني (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، ٢١: ١٨٩-١٩٠، وعنده (ومراقبة عطاء).

(١٠٣) السكري، شرح ديوان الهذليين، ٢: ١٥٩-١٦٠؛ وخليف، الشعراء الصعاليك،  
١٨٩-١٩٠.

وتختار المراقبة في نتوء مشرف حاد كحد الفأس، يشرف على طريق ضيق كنفق يتسرب الناس فيه بعضهم في إثر بعض، وفي نتوءه بquam عرش يستظل الراصد تحته ويختبئ فيه، وهو متهدم قديم لم يبق منه الأعدوان أحدهما قائم والآخر ملقى على الأرض: (١٠٤)

في ذات ريد كذلك الفأس مشرفة طريقها سرب بالناس دعبوب  
لم يبق من عرشها إلا دعامتها جدلان: منهدم منها ومنصوب  
ولا يقتصر واجب المراقب على الأفراد، بل تسند مهمة المراقبة إلى القائد كتابط شراً، الذي يسبق غيره إلى قمة المراقبة العالية الحادة كأنها أسنان رمح، ويحدد الزمان صيفاً لاهباً، ولم يبق من عرشها إلا مثل علامة يتخذها الرجل على ظهر بيته في الجاهلية ليدلل على شرفه، خشبتان: أحدهما قائمة والأخرى ملقاة يستظل بها الطلائع في القلال إذا اشتد الحر: (١٠٥)

وقلة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق  
بادرت فتنتها صحي وما كسلوا حتى نمت إليها بعد إشتراق  
لا شيء في ريدها إلا نعامتها منها هزيم، ومنها قائم بأق  
وقد ينسق راصدان فيما بينهما على مرقبتين، وبينهما رموز وإشارات يتعارفان عليها؛ كتابط شراً ومرة بن خلف إذ سعد كلاهما إلى قنة جبل وبينهما إشارة إذا ألح أحدهما للآخر بثوبه فهي حياة، وإذا ألح بالسيف فيعني الموت. (١٠٦)  
ومن طرق استخباراتهم اعتمادهم على خبراتهم في مجاهل الصحراء؛ شأن تأبط شراً الذي اجتاز مجاهيل الأرض الصعبة في جرة، وتقحمها دوناً دليل: (١٠٧)  
وشعب كشل الثوب شكس طريقه مجامع صوحيه نطاف مخاصر

- 
- (١٠٤) التبريزي، شرح المفضليات، أبيات ١٦-١٨، ص ٥١.  
(١٠٥) الخطيب التبريزي، شرح اختيارات المفضل الضبي، تحقيق فخر الدين قباوة، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ١٢٥-١٢٨.  
(١٠٦) الأصمعي، الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥م)، ١٣٥-١٣٦.  
(١٠٧) القالي، الأمالي، ٢١: ١٤٨.

به من سيول الصيف يبيض أقرها جبار يضم الصخر فيه قراقر  
تبطنته بالقوم لم يهدنــــي له دليل ولم يثبت لي النعت خابر

#### (٤)

ولتنفيذ خططهم في غاراتهم وظفوا فنونا من مهارات المعركة منها: الزحف على البطن وتغييره موقعه بعد أن اصطلى النار، واتخذ موقعا آخر، بين الأبل، وسهمه على كبد قوسه، فقتل متربصين به وانهزم الثالث شأن تأبط شرًا مع خصومه الرصدة. (١٠٨)

ومن مهارة المعركة تقليد الشنفري مشي الضبع بأن ينزع نعلًا ويلبس أخرى ويضرب برجله حتى يموه على الناس فيظنوه الضبع، لأن «بالضباع عرجًا خلقة» على ما يراه الجاحظ. (١٠٩) غير أن الدميري يراها غير عرجاء وإنما يتخيل للناظر للدونة في مفاصلها ورطوبة في الجانب الأيمن منها. (١١٠) ولكن خصمه أدرك حيلته بتقليده الضبع وكان سببًا لمصرعه، وهذه استخبارات معاكسة. (١١١)

ومن مهارة المعركة التحذير من العبث بالسلاح وقعته لأنه يهتك سر الغارة، وبنه الخصم، فيفشل عنصر الأمن والمفاجأة، ولذا فإن تأبط شرًا حذر عامر بن الأحنس قائد الغارة على بني نفاثة - وكانوا في سرية من قوم تأبط شرًا، وقت السحر، وقد أوشكوا على مداهمة الخصم ومفاجأته - حذره من شد قوسه المسترخية لما له من خطورة في فقد عنصر المفاجأة فقال له: «بعض حطيط وترك يا عامر.» وفعلاً سمعه شيخ من بين نفاثة فاستنفر قومه، والحي خلوف، فلبست النساء السلاح وتوهموهن رجالاً ففشلت الغارة. (١١٢) ولعل هذا التحذير ينسحب على مهارات المعركة حالياً التي يحذر الجندي من طلقة طائشة لثلاث نفوس الغارة.

(١٠٨) الجاحظ، الحيوان، ١: ١٤٣.

(١٠٩) كمال الدين محمد بن موسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ط ٥ (القاهرة: مكتبة ومطبعة

مصطفى البابي، ١٩٧٨م)، ١: ٦٤٠.

(١١٠) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٨٢.

(١١١) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٦٣.

(١١٢) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٨٠.



ومن مهارة المعركة دقة الرماية وخاصة الرماية الليلية التي اغاز بها الصعاليك شأن تأبط شرًا والذي كان لا يصبر شيئًا في الليل يتوجس منه خيفة إلا رماه، وعليه فقد رمى سوادًا غير مرة وكان لا يخطئه، وكان لدقة إصابته يقول لخصمه أطرفك: أي أرمي عينيك؟ (١١٣)

ويوظف خصمهم استخباراتهم المعاكسة، فيكمنون للشفرى، ويخططون لرصده على مصدر ماء، ثم علموا من امرأة أطعمته إقطا وأخفت الماء عنه عمدًا ليعطش، ووصفت لهم أفواق نبلة فعرفوها في قتالهم فرصدوه على ركي لهم، وقد أجمعوا على ألا يتحرك المصاب فيهم بنبال الشنفرى التي لا تخطيء، والتي يرمى عادة كل سواد يراه ليلاً، على أن يتدرج كل راصد بنعله على مقتله، فأسروه وقتلوه. (١١٤)

### (٥) و(٦)

ويحدد بعض الصعاليك زمان غاراتهم، فتبدو الغارة بصورة أشبه بتقرير يقدمه قائد الغارة بعد عودته سالمًا من أرض العدو، ولعل فسحة البحث لا تتسع لاستقراء الظرفين هذين، وعليه سأمثل بشاهد دال لأن في القليل تدليلاً عن كثير؛ فالشنفرى يصف طريق غارته ولم يحدد الزمان من مشعل إلى جبا، حيث خرج من موقع مشعل الذي بين مكة والمدينة وتوجه إلى ديار بني سلامان جنوباً باتجاه اليمن وقد قتل مهدياً في منى وهو يؤدي طقوساً تعبدية، وكانت غارته على خيل: (١١٥)

خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا، هيهات أنشت سرتي

(١١٣) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٩٤.

(١١٤) التبريزي، شرح المفضليات، ٢٠١-٢٠٦.

(١١٥) التبريزي، شرح المفضليات، ٢٠١-٢٠٦؛ وانظر الموقع عند كل من: التبريزي، شرح المفضليات، ٢٠٢-٢٠٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، عني به محمد أمين الخانجي، ط ١ (القاهرة: مطبعة الخانجي، ١٩٠٦م)، مادة «جبا» و«مشعل»؛ صفى الدين البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاه، ١٩٥٤م)، ٣: ١٢٧٥، وجبا من الروشة ومشعل بين مكة والمدينة؛ الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٨٧.

وأمشي على الأرض التي لن تضرنني لأنكي قوماً أو ألافني حمستي  
ويطبق في غارته التخفي والتستر حتى لا يدرك ويبدو أنه خبير في مسالكها إلى  
أن نفذ خطته: (١١٦)

قتلنا قتيلاً مهدياً بجلبد جمار «منى» وسط الحجيج المصوت  
ويجلّي تأبط شرّاً موقعة دارت رحاها بينه وبين غول في منطقة اللوى ليلاً؛  
فنعرف أن اللوى في منطقة اليمامة، ونذكر كم لقي من العنت في قتلها كما يصف في  
قصيدته: (١١٧)

فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتا أنت ما أهولا!  
فطالبتها بضعها فالتوت بوجه تغول فاستغولا  
فمن كان يسأل عن جارتي فإن لها باللوى منزلا

## (٧)

وأما الخدمات الإدارية فهي خدمات تقدم إلى المقاتلين، لإنجاز أعمالهم منها  
الطعام، والماء، والسلب، والحراسة، واللباس، ونحوها.  
أما طعام الصعاليك فتتوزع مصدره، فكان صيدهم الحيوانات البرية نظراً لسرعتهم  
أو بسهامهم «فقد كان تأبط شرّاً أعدى الرجال لا يفوته ظبي إذا عدا خلفه». (١١٨)  
وطعامهم كان مما يسلبونه كما يقول تأبط شرّاً: (١١٩)

(١١٦) التبريزي، شرح المفصليات، ٢٠١-٢٠٦؛ الأصبهاني، الأغاني، ١٨٩: ٢١، «قتلنا حزاماً  
مهدياً» محللهما بين الحجيج المصوت.

(١١٧) انظر موقع اللوى عند: ابن منظور، مختار الأغاني، ٢: ٢٤٤؛ الهمداني، صفة جزيرة  
العرب، ٢٥٣، ٢٦٧؛ وفي «اللوى» معارف للجن وموقع اللوى في منطقة اليمامة بين الدام  
والرملية؛ وكارلو نالينو، تاريخ الأدب العربية من الجاهلية إلى عصر بني أمية، اعتنت بنشره  
مريم نالينو، تقديم طه حسين، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٧٢-٧٤؛ الأصبهاني،  
الأغاني، ٢١: ١٢٨.

(١١٨) الأيوبي، معجم الشعراء، ٨٨ ورقمه ١٣٤؛ والبغدادي، خزانة الأدب، ١: ١٣٧-١٣٨.

(١١٩) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٦، ١٥٣ يطرد الإبل المهمة عمداً.

ولست أبيت الدهر إلا على فتى أسليه أو أذعر السرب أجمعاً  
وأما اعتمادهم على الصيد في غذائهم فعلى حيوانات الصحارى، شأن عروة بن  
الورد الذي شوى أرنباً وحفر لفضلاته حفرة طمرها فيها. (١٢٠)  
وتنوع طعامهم فمنه اللحم كما أشرنا، ومنه العسل ولعل محاولة تأبط شراً أن  
يشتار كل عام مرة دليل على ذلك، وقد هرب بخدعة وحيلة مدبرة. (١٢١)  
وطعام الصعاليك قليل، فلا بد من تقنينه وإدارة شؤونه كما فعلت أم العيال  
«تأبط شراً» في سياسة تقنين الطعام التي امتدحها الشنفرى بقوله: (١٢٢)  
وأُم عيال قد شهدت تقوتهم إذا اطعمتهم أو تَحَتْ وأَقَلَّتْ  
وما أن بها ضنٌّ بما في وعائها ولكنّها من خيفة الجوع أبقت  
تخاف علينا العيل إن هي أكثر ونحن جياع، أي آل تألت؟!  
وأما الماء، فكانت مصادره قليلة في الصحراء، وكان في كثير من حالاته  
مرصوداً لينغص على الصعلوك شربه، وقد قتل عليه الشنفرى، وكان سابق القطا  
الكدرى إلى مصدر الماء ليشرب منه قبله. (١٢٣)  
ويبدو أن الصعاليك كانوا يشربون حليب النياق إذ ربما كان يبل صداهم، عوضاً  
عن الماء حيناً. (١٢٤) ومن شؤونهم الإدارية السلب وقد كانوا يظفرون به أحياناً  
ويخسرونه أحياناً أخرى. (١٢٥) وينهزمون ليظفروا به أحياناً شأن تأبط شراً: (١٢٦)  
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبض الشر غيداق

- 
- (١٢٠) الأصبهاني، الأغاني، ٣: ٧٣، وكان تأبط شراً ينتقي أسمن الظباء ويجري خلفها فلا تفوته  
لسرعته، الأغاني، ٢١: ١٢٨؛ عروة بن الورد، مقدمة ديوانه، ١٠-١١.  
(١٢١) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٤٠.  
(١٢٢) التبريزي، شرح المفصليات، أبيات ١٩-٢١.  
(١٢٣) انظر ذلك عند: ابن درهم، نزهة الأبصار، ٧٢٧-٧٣١؛ الميمى، الطرائف الأدبية، ٣٩ خبر  
مقتله؛ الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٩٤.  
(١٢٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢: ٦٧٤.  
(١٢٥) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٨. وقد خسر تأبط شراً السلب.  
(١٢٦) التبريزي، شرح المفصليات، ٢٧.

ومن خدماتهم الإدارية النوم المنغص بالحراسة الذي تنوع، فمته: أن قلب الصعلوك سلاحه الأول وسيفه الثاني يحميه، فنومهم قليل، وكثيراً ما كانوا في أرق نفسي يمثلهم عمرو بن براق بقوله: (١٢٧)

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم غرار إذا نام الخلي المسالم  
والشنفري قلق نفسياً؛ طريد جنائيات، تتابه هموم، كالحمي يطردها فتعود إليه  
من فوقه ومن تحته: (١٢٨)

طريد جنائيات تياسرن لحمه عقيرته لآيتها حــــمّ أول  
تبيت إذا ما نام يقظى عيونها حثاثا إلى مكروهة تغلغل  
والف هموم ما تزال تعود عياداً كحمي الربع أو هي أثقل  
إذا وردت أصدرتها ثم إنها ثوب فتأتي من تُحيت ومن علّ  
ونومهم بحذر، وسلاحهم على أهبة الاستعداد، وفي متناول أيديهم كتابط شرّاً  
الذي قتل راصديه وولى الثالث منهم مديراً. (١٢٩) وأماكن نومهم في صحراء قاسية؛  
قرا في الشتاء وحرّاً في الصيف، كما يذكره الشنفري: (١٣٠)

ويوم من الشعري يذوب لعابه أفاعيه من رمضائه تمللمل  
نصبت له وجهي ولاكنّ دونه ولا ستر إلا الأتحمي المرعبل

\*\*\*\*\*

وليلة نحس يصطلي القوس ربها واقطعه اللاتي بها يتنبل  
فأيمت نسوانا وأيمت ولــــدة وعدت كما أبدات والليل أليل  
كانوا متيقظي القلوب إذا ما نامت عيونهم، حذارى من المفاجأة، تكبر الأصوات  
في مسامعهم، فيسمعون نقف الحصى هدة صخر، كما يصف أبو كبير زوج أم تأبط شرّاً  
يقظته، وهو يحاول قتله. (١٣١)

(١٢٧) الحسن الهمداني، الأكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، ط ٢ (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، الكتاب العاشر، ٢٠٢-٢٠٤.

(١٢٨) الفالي، ذيل الأمالي، ١: ٢٠٥.

(١٢٩) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٣.

(١٣٠) الفالي، ذيل الأمالي، ١: ٢٠٥.

(١٣١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١: ٦٧٣-٦٧٤.

وأما لباسهم فأسمال؛ تقيهم من ظروف الطقس، وشعرهم ملبد بعيد فليه، كما يصفه الشنفرى: (١٣٢)

نصبت له وجهي ولاكنّ دونه ولا ستر إلا الأحمي المرعل  
وضاف إذا هبت له الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجل  
وأما قواعدهم فكانت إما في أماكن إغارتهم؛ وإما في أماكن عشائهم،  
ليحمد سلبهم؛ قال الشنفرى: (١٣٣)

فلما رأنا قومنا قيل: أفلحوا فقلنا: اسألو عن قاتل لا يكذب  
ومن شؤونهم الإدارية الطبابة التي أشاروا إليها على نحو من التوقّي من  
الزواحف ولدغ الحيات، كأنهم مع المثل المشهور «درهم وقاية خير من قنطار علاج»؛  
ذلك أن تأبط شرّاً اتخذ مسراه بين البردين: يعني أول الليل وآخره؛ ذلك لأن في الأول  
تمور الحيات خارجة من جحورها، وفي آخره تمور مقبلة إليها. (١٣٤)

كما ذكروا الجراح وبعض إسعافاتهم من السهام شأن تأبط شرّاً الذي أسعف  
نفسه من أثر جرح وولّى مدبراً إلى زوجه التي ولولت لما رأته مجرحاً، فهدأ روعها إذ  
هو أهون من القتل: (١٣٥)

تولول سعدى إن أتيت مجرحاً إليها وقد منّت عليّ المقاتل  
كما برز في شعر الشنفرى رثاء الأعضاء منها يده التي بترت بسهم معاد قبيل  
مقتله وكانت عليها شامة فقال: (١٣٦)

لا تبعدى إما هلكت شامة فرب واد نفرت حمامه  
ورب قرن فصلت عظامه ورب خرق قطعت فتامه  
وذكروا في أشعارهم الخسائر البشرية منهم ومن أعدائهم، فالشنفرى يذكر  
خسائر عدوه من بجيلة وعددهم ثلاثة: راجلان وفارس: (١٣٧)

(١٣٢) القالي، ذيل الأمالي، ١: ٢٠٥.

(١٣٣) الميمني، الطرائف الأدبية، ٣١-٣٢.

(١٣٤) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٣٠.

(١٣٥) الأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٥٨.

(١٣٦) الميمني، الطرائف الأدبية، ٤٠؛ والأصبهاني، الأغاني، ٢١: ١٩٤.

(١٣٧) الميمني، الطرائف الأدبية، ٣٢.

وقد خر منهم راجلان وفارس كمي صرعناه وخوم مسلّب  
كما يرثون قتلاهم من الصعاليك شأن تأبط شرّاً يرثي صعلوكين فقدهما في  
غارة: (١٣٨)

أبعد قتيل العوص آسى على فتى وصاحبه أو يأكل الزاد طارق؟  
كما يعينون مكان دفن تأبط شرّاً في غار رخمان في ديار هذيل كانه توثيق كقول  
مرة بن كعب فيه: (١٣٩)

إن العزيمة والعزى ثوبهم — أكفان ميت ثوى في غار رخمان  
ويحدد أكفانه من كرسف وكتان حقيقة، مع أن أكفانه نسب طيب وریش من  
ندی على نحو مجازي:

إلا يكن كرسف كفتت جيّده ولا يكن كفناً من ثوب كتــــــــــــان  
فإن حرام الأنساب ألْبسه ریش الندى، والسدى من خير أكفان  
إنه - كما ترى - الاعتزاز الصعلوكي بنفسه، وحسبه، حياً وتأيي على ظروف  
الموت وأكفانه ميتاً، فهو في الحالتين اعتداد بنفسه عنيد.

ومُخَلَّصُ القول: إن ظاهرة الغارة عندهم كانت - غالباً - محكمة الخطة  
ومدبرة؛ يراعى فيها استعداداتهم الجسدية والنفسية، فالجسدية كانت تتطلب منهم لياقة  
بدنية متميزة، حتى لا يعلق بهم خصمهم رجلة وخيالة. والنفسية تتمحور فيها تأبيهم  
الاستجداء من أحد، ورباطة جأش يخاطرون بأنفسهم لتحقيق مكاسب كانوا يسدون  
بها رمقهم في عيش ضنك غالباً، وكان ينازعهم منزعان لتحقيق أهدافهم هما: نفسي  
داخلي لسد الرمق، ونفسي خارجي حين تشجع بعضهم نساؤهم على التصعلك  
«فالقعود مع العيال قبيح»، أو يخوفهم من العدو لثيهم عن المخاطرة، وفي الحالتين  
كانت تشكل عندهم ردود فعل نفسية متباينة، كثيراً ما حسموها بقرار التصعلك  
والمغامرة.

كان تخطيطهم - في غير غارة من غاراتهم - محكماً، يعتمد على استخبارات

(١٣٨) الأصهباني، الأغاني، ١٣٧: ٢١.

(١٣٩) انظر هذه المواقع عند: الحموي، معجم البلدان، ٤: ٢٤٢. ورخمان في ديار هذيل؛  
البغدادى، مرصد الاطلاع، ٢: ٦١١؛ أبو تمام، الوحشيات، ١٣١، قطعة (٢٠٩).

دقيقة عن عدوهم وعن طبيعة الأرض التي ينوون أن يشنوا غاراتهم عليها، وبناء على دراساتهم المحكمة فكانوا يحددون نوعية الغارة وعدد أفرادها، ثم أهي غارة راجلة - إن كانت الأرض جبلية وعرة - أم خيالة - إن كانت طبيعة الأرض أو ما يمكن أن يسمى " مسرح عمليات الغارة " - صحراوية أو سهلية .

وقد حسبوا للخدمات الإدارية حساباتها، معتمدين على معرفتهم بمصادر المياه، وإن كانت شحيحة دفنوا الماء في بيض النعام حين الحاجة، واعتمدوا (تقنين الطعام) وصيد الحيوان؛ إما برميهِ أو عديا خلفه معتمدين على لياقة بدنية عالية ضرب بها المثل . وتوقوا من لدغ الزواحف ما أمكنهم؛ وذلك لمعرفة بمواقيت خروجها من جحورها وعودتها إليها، كما كانت لديهم معلومات عن إسعافات الجرحى، أما القتلى فأعزاء على الأحياء منهم فهبوا يرثونهم، بقلوب يعتصرها الألم، لفقدان شجاعتهم وصبرهم على مر القتال، ويحددون أحيانا مواقع دفنهم على نحو توثيقي . ولعل في درس الغارة هذه : إعداداً ومنهجاً وأسلوب قتال أن يشي بعض أساليبه بمبادئ يعرفها رجال حرب العصابات في وقتنا الحاضر .

## The Raid in the Poetry of the *S'aaleek* in the Pre-Islamic Period

Hassan M. A. Rababah

*Assistant Professor, Department of Arabic, Philadelphia University,  
Sweileh, Jordan*

**Abstract.** *S'aaleek's* poetry of the pre-Islamic era betrays a dominant characteristic of war; namely, the "raid." Raids were usually carried out amongst Arab tribes in Arabia for reasons related, among others, to poverty, revenge, and the absence of a political authority that could solve and control disputes. This topic (Raid in the poetry of the *s'aaleek*) is new, and has not been addressed from military and literary purviews. Dividing this paper into three sections, I address in the first the term "raid" and the motivations for the event of a "raid." In the second, I treat planning out the "raid," and in the third section, I concentrate on carrying out the "raid."

The term "raid" has not been fully defined in our dictionaries; this lack is, perhaps, due to disinterest in pursuing the development of its signification. Planning out the "raid" is divided into three domains: the military, administration, and military administration. Such division is necessitated by the parties to the raid and the mode in which they are engaged: defensive or aggressive. Raids depend on *s'aaleek's* armament, intelligence in gathering information, and fighting skills. The martial art of these poets is sufficiently demonstrated. In addition, the paper draws on illustrative evidence as regards space, time, and administrative services.